طبع بمعونة من وزارة المعارف العراقية

الأدب في ظل بني بويه

تأليف

محمد عناوي الزهيري

ماجستير في الآداب (M.A.) من جامعة فؤاد الأول

١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م

مطبعة الأمانة ٥٨ شارع الفجالة بمصر

T.D.V. İSL
MERKE

الإهداء

إلى :

أساتذتى الأجلاء فى مصر العزيزة الخالدة . . .

ومدرسى الكرام فى الوطن المحبوب . . .

إلى :

هؤلاء الذين يفنون زهرة العمر فى بناء نهضتنا الفكرية .

أهدى هذا الجهد المتواضع .

مع أسمى آيات الإجلال والإكبار ؟

محمود غناوى الزهيرى

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi
Prof. Dr. Nihad M. ÇETİN Bölümü
Demirbaş No: 2959
Tasnif No: 892.7 ZAH-E

تقـــديم

بقلم حضرة العالم المحقق أستاذنا الكبير أحمد الشايب

أستاذ الأدب العربى بجامعة فؤاد الأول

— ١ —

إذا كان الأصل فى الحياة العلمية أن تدرس مسائلها دراسة موضوعية يضطر فيها الدارس بمقتضى منهجه أن يتحامى عواطفه ومزاجه ، أو يجردها من ملابساتها الزمانية والمكانية والشخصية حرصاً على تحقيق هـــذه الموضوعية فى دقة وصفاء ... فإن الأصل فى الحياة الأدبية أن تدرس نصوصها ، نقداً أو تأريخاً ، درساً متصلا بالزمان ، والمكان ، والأدباء ، يضطر فيه الباحث بطبيعة منهجه أن يستلهم عواطفه ومزاجه ليستطيع عرضها كما أنشئت جامعة بين المقومات التى كونتها ذاتية كانت أو موضوعية . . . ذلك أن هذه النصوص الأدبية نفسها إنما كانت ثمرة ذلك التفاعل بين طبيعة الأديب الذى أنشأها وبين هذه البيئة التى احتوته طبعية أو زمانية أو ثقافية أو نحوها مما يؤثر فى موضوعات الأدب وأساليبه حتى إذا صدرت هذه النصوص كانت ذلك الفن الذى تناصرت على تكوينه كل هذه العناصر الداخلية والخارجية.

وكان على دارس هذه النصوص ، إذاً ، أن يردها إلى عناصرها هذه أمينا معتمداً على ذوق سليم ، وثقافة عريضة ، ومواهب عالية ، إذ هى وسيلته التى بها ينقد الأدب ويؤرخه . . .ذلك هو الأصل العام لهـــذه الدراسات الأدبية التى تنتهى إلى إدراك جمال الأدب ، وتفسيره ، ثم وصف هذا الأدب وصفا ينتهى ليكون تاريخ الأدب .

— ٢ —

هذه الدراسات الأدبية ، كما رأيت ، متصلة حتما بالأدباء ، وبالبيئات التى احتوتهم ، وبالأزمنة التى عاشوا فيها وخضعوا لمقوماتها ، ولعل بعض الناس قد غم عليهم ذكر الزمن فى هـذا الدرس ومقدار صلته بالأدب ، إنشاء ، ونقداً ، وتاريخا ، فكان لا بد من إشارة إلى هذه الصلة وبيان منزلة الزمان حين يرد ذكره فى هذا المعرض .

لم يقل أحد ، وهو يردد كلمة الزمن فى نقد الأدب وتاريخه : إنه يقف به عند هذه الشهور والسنين الفلكية المجردة التى يتعاقب فيها الليل والنهار وكفى دون ملابسات ما ، بل الزمن فى أبسط صلاته بالأدب يحدد الأطوار الفنية التى تتعاقب أو تتعاصر فتكون سلسلة أو صفحات أدبية يكون منها تاريخ الأدب عامة كما يكون فيها وفى كل منها طائفة من الخصائص التى يمتاز بها كل طور من أطوار الأدب .

وفى كل طور نجد البيئة والأديب يتفاعلان دائما فيثمران لنا هـذا الأدب الذى ندرسه . نعم وفى حدود البيئة الواحدة يتدخل الزمن فيحدد أطوارها الفنية تحديدا مقاربا على كل حال .

ولذلك كان نقادو الأدب ومؤرخو نقده يضعون نصب أعينهم دائما سير الأدباء ، وبيئاتهم ، والأطوار الزمنية التى تقلبوا فيها ليستطيعوا الإنصاف فى الحكم الفنى والتاريخى جميعا ، ولذلك أيضا أخذ مؤرخو الأدب العربى بمسألة العصور الزمنية أولا حينما كان الأدب أقرب إلى الوحدة ، ولا سيما فى صياغته ، وذلك فى حياة الأدب الأولى ، فى الجاهلية وصدر الإسلام والعصر العباسى الأول ، وهم لا ينسون خلال ذلك درس

البيئات الأدبية والعلمية وخصائصها فى ثنايا تلك العصور وإن لم تكن قد بلغت من الخطورة مبلغها فيما بعد ذلك من عصور .

حتى إذا كان القرن الرابع وقويت الآداب القومية وظهر أثر البيئات واضحا متميزا وبخاصة فى الفنون الأدبيـــة وصياغتها أخذ المؤرخون يؤرخون الأدب — بعد هذه النظرة الزمنية العامة — على أنه أدب أقاليم وأوطان أو بيئات كمصر والشام والعراق، والأندلس ، وغيرها ، ثم يلاحظون فى كل إقليم أو بيئة أطوارها التاريخية ، وبيئاتها الفرعية ، ومدارسها الهامة وهكذا ، يرتد الأمر كله ، وفى كل حالة إلى أطوار الأدب نفسه كما تمليها دراسته الفنية فيرصدها الدارس ناقداً أو مؤرخا دون أن يقف بعيداً فيملى عليه ما ليس من طبيعته وحياته . . . فهذه مسألة دراسة الأدب عصوراً وبيئات .

— ٣ —

فإذا تجوزنا بعض الشىء ، أو حققنا بعض الشىء كان الزمن الأدبى هو هذا التطور نفسه الذى يتخذ من الجنس ، والثقافة ، والدين ، والسياسة ، والاقتصاد والاجتماع والبيئة، عناصر ومقومات يكون بها حلقات التاريخ الأدبى وطبقات الأدباء ، فإذا بنا أمام شعوب تخضع لهذه المقومات المتطورة فتثمر لنا أدبا ذا أطوار متعاقبة لكل طور سماته التى يسمى من أجلها عصر النهضة ، أو الجاهلية ، أو العباسيين ، أو ملوك الطوائف ، أو الفاطميين فى مصر ، والحمدانيين فى الشام .

والزمن بهـــذا التجوز أو التحقيق أوسع أفقـا ، وأعمق معنى ، وأقرب إلى طبيعة هذه الدراسات النقدية والتاريخية ، ففيه المكان والجنس ، والثقافة ، وفيه الحاضر والماضى ، وفيه ـ وهو الأهم ـ التطور ، والحركة ،

والحياة ، والتاريخ . . . فيه هذا التواصل أو التوالد الذى ينتظم الحضارة كلها والكون كله، أفليس من الإنصاف ، اذاً ، أن نعرض عن تلك القشور التى يقف عندها اللفظيون ونلقى ذلك الزمن الأدبى كما هو معـــنى ، وعملا ، ومقومات لهـا آثارها فى التاريخ والاجتماع ؟

وهب أننـا وقفنا عند البيئة وحدهـا وأغلقنا دوننا الأبواب والنوافذ، أيمكن أن نتلقاها ساكنين نتبين من جنباتها مقومات الأدب وخصائصه دون أن نعود ـ فى سبيل ذلك ـ إلى الماضى، الماضى البعيد والقريب، ودون أن ننتقل منها فنفتح الأبواب لنصل إلى غيرها من البيئات ؟

أكان الأدب العربى فى مصر زمن الفاطميين نتاج مصر وحدها زمن الفاطميين ؟ كلا ، هناك فيه ، بل أكثره ، جاهلى ، وإسلامى ، وعراقى ، ومغربى انتهى إلى مصر مع الزمن . . . أكانت دراسة مصر زمن الفاطميين تتم دون أن توازن بغيرها من الأقاليم والأوطان العربيـــة ؟ كلا ، وإلا سجنا أنفسنا ، وبترنا درسنا .

أليس الزمن تراث الماضى تحدر متطورا ملونا بهذه العوامل الفعالة فلا يكاد يستقر فى مكان ما حتى تدفعه عوامل الزمن إلى الاستحالة والحياة جامعا بين التليد والطريف من أسباب هذه الحياة ؟ هذا هو الزمن إن صح تحوزنا أو تحقيقنا ، وهذه هى آثاره العريضـــة ، فهل ضاق بالبيئة أو أنكرها؟ كلا ، ألم يشتملها فتصبح دراستها زمنية جزئية ؟ ولكنها ـ كما نرجو ـ دراسة متحركة ، حية ، عميقة ، شاملة متصلة بسواها وإلا فعليها العفاء .

فإذا سألت عن الأدب الأول أيام نشأ وحى ، أين كان زمنه الغابر ، وتطوره المتحرك ؟ قلنا لك : إن هذه النشأة الأولى إنما كانت هى كذلك ثمرة تطور ثقافى بعيد الماضى ، كثير الحلقات، متحرك الخصائص، تناول البيئة ،

والجنس ، والثقافه ، والدين ، واعتمد عـــلى الأسباب التى تحيل الحياة وتسير بها قدما دون أن تقف حتى بين جدران البيئة الواحدة.

— ٤ —

ونعود فنقول: إذا كانت هذه الحياة الأدبية تقتضى دارس النصوص أن يعنى بالزمان ، والمكان، والأشخاص ليستطيع نقد هذه النصوص وتاريخها فقد نشأت فى ظل هذا الأصل مناهج دراسية شتى : منها ما يتصل بالنص ذاته ليتبين مافيه من أسباب القوة والجمال وهى دراسة نقدية خالصة تعنى بالجانب الفنى أصالة وإن لم تستغن عن تعرف ملابسات هذا النص أديبا، أو مكانا ، أو زمانا ، ومنها ما يتصل بالفن الأدبى كله من حيث إنه صور متتابعة للتعبير عن شعور خاص تتغير بواعثه ومظاهره على مر الأيام وتباين العوامل ، فهى تاريخ الفنون الأدبية ، ودراسة تتصل بالأشخاص من حيث إنهم المصدر المباشر للآثار الأدبيـة ، فلا بد إذاً من تعرف سيرهم ، ونفسياتهم ، وأمزجتهم ومقدار ما تفاعلوا مع بيئاتهم ، وهى دراسة عريضة لمن يتناولها ، عميقة شاملة ، ودراسة تتصل بالأدب جملة، فى بيئة من البيئات أو طور من الأطوار ، أو فى جميع الأطوار . . . هى تاريخ الأدب كله أو بعضه يصفه الدارس فيضع له هيكلا عاما أو عدة هياكل منهجية ليخلص من ذلك إلى أدب عام فى إقليم أو صور منه متقاربة فى عدة أقاليم أو صور متباينه بحكم البيئات ، أو أطوار متعاقبة على مر العصور ... كل ذلك وهو غارق فى ذلك المعنى الزمنى القائم على التطور كما بينا من قبل .

وإذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك طبعاً ـ وكان تاريخ الأدب العربى طويلا ، عريضا ، عميقا ، فقد اقتضت دراساتنا الجامعية أن نتناوله